اطمئنان

[إن مركز الوزارة الصدقية[1] لم يكن فى وقت من الأوقات أقوى وأمتن مما هو الآن ، فهى تتمتع بعطف جلالة الملك ورعايته كما تتمتع فى الوقت نفسه بثقة البرلمان التامة] .

[على أن أحوالا وظروفا خاصة قد تفضى إلى تعديل فى الوزارة ، إذ ليس ثمة وزارة يمكن أن تبقى فى مركزها على الدوام] .

لا بأس على رئيس الوزراء من أن يجمع بين هذين النقيضين فى حديث قصير جدا ، تقرؤه فى دقيقتين اثنتين . فرئيس الوزراء متعب لا جناح عليه إن جمع بين النقائض ، ورئيس الوزراء نابغة لا حرج عليه أن يجمع بين النقائص .

والواقع أن التأليف بين الأضداد ، والجمع بين النقائض شىء لم يبحه الله إلا للمتعبين الذين يعييهم التفكير المستقيم ، أو النابغين الذين يخرجون من أطوار الناس ويتحدثون بما لا يفهم ولا يحتمل التفسير .

---

(١) ٣٠ - ٨ - ١٩٣٣

ورئيس وزرائنا نابغة ما فى ذلك شك ولا ريب . ورئيس الوزراء كان مريضا وقد برئ من هذا المرض والحمد لله ، ولكنه متعب مكدود ما فى ذلك شك . وآية ذلك ــ إن كنت فى حاجة إلى آية ــ إن الأخبار قد استفاضت به فلم ينكره أحد ، وأن الإجماع كان قد انعقد على أن رئيس وزرائنا سيتقبل فى حفل عظيم ، وسيلقى خطبة سياسية جامعة حين يعود سالما موفورا إن شاء الله . ثم أصبحت خطبته السياسية شكا من الشك ، ولونا من ألوان الريب . ثم أقبل سكرتيره يتقدمه بأسبوع عجلان مسرعا ، فزار أشخاصا بارزين من أساطين العهد السعيد ، ولم يمض على مقدمه ليل كامل – نستغفر الله – بل ساعات حتى أصبح الحفل العظيم شكا من الشك ، ولونا من ألوان الريب ، وقيل إنه أُجِّل ، إلى غير أجل وكانت الوفود قد هيئت وأخذت تحزم أمتعتها فيقال لها : مكانك تحمدى أو تستريحى .

وكانت الخطب قد حبرت أو أخذ فى تحبيرها فسيقال لها : انحلى انحلالا ، وليذهب كل لفظ من ألفاظك إلى حيث كان ، وليذهب كل معنى من معانيك إلى معدنه الكريم الذى خرج منه ، فلا استقبال ولا احتفال ولا استباق فى حلبة الفصاحة والبيان ، لأن رئيس الوزراء متعب يريد أن يستريح فلا ينبغى أن يُشَق عليه ، ولأن رئيس الوزراء قد برئ من مرضه ولكنه حريص ، ومصر حريصة معه على أن يقف ما أنعم الله به عليه من الصحة لتصريف الشئون العامة ، واستنقاذ البلاد من هذه الأخطار المحدقة التى تأخذها من كل مكان .

رئيس وزرائنا نابغة ما فى ذلك شك ، ورئيس وزرائنا متعب ما فى ذلك شك . ولأحد هذين السببين أو لهما جميعا استطاع رئيس وزرائنا أن يلائم بين الأضداد ، ويجمع النقائض ، ويعلن إلى مكاتب الأهرام أمس أن مركز الوزارة الصدقية لم يكن فى وقت من الأوقات أقوى وأمتن مما هو الآن .

ويعلن إلى مكاتب الأهرام فى الوقت نفسه وفى الحديث نفسه أن أحوالا وظروفا خاصة قد تفضى إلى تعديل فى الوزارة ، إذ ليس ثمة وزارة يمكن أن تبقى فى مركزها على الدوام .

فالوزارة إذن قوية إلى غير حد ، ومركزها متين إلى غير حد ، ولكنها مع ذلك قد تعدل لأن بقاء الوزارات على الدوام فى مركزها أمر لا سبيل إليه . كلام يفهمه المتعبون أو يفهمه النابغون . أما أنت فلست متعبا ولا نابغة ولست أنا أشد منك تعبا ولا أدنى منك إلى النبوغ ، فلنا العذر كل العذر إذا لم نفهم هذا الكلام على وجهه ، ولم ننته منه إلى النتيجة التى أرادها صاحبه ، وهل أراد صاحبه شيئا ؟ مثلى ومثلك من الذين أعفاهم الله من المرض والتعب إلى حين ، ولم يتح لهم التفوق والنبوغ ، إذا سمع مثل هذا الكلام هز رأسه ورفع كتفيه ومد شفتيه مغضبا لمخالفة أحكام العقل ، أو قبض شفتيه باسما للخروج عن أصول التفكير المستقيم ، ثم غشيت وجهه سحابة رقيقة فيها ألم للمتعبين وإعجاب بالنابغين ، لأن الوزارة القوية إلى غير حد ، المتينة إلى غير حد ، التى لم تكن فى يوم من الأيام أقوى مما هى الآن ، لا تحتمل تعديلا ولا تبديلا ، ولا تتعرض لتغيير أو تحوير ، وإنما تفرضها قوتها على الناس والأيام والظروف فرضا حتى يأتيها الضعف من بعض نواحيها . فإذا أتاها هذا الضعف لأن رئيسها مريض قد

طال مرضه ، أو لأن سياستها قد أخفقت إخفاقا معيبا ، أو لأن صديقا من أصدقائها الأعزاء قد اضطر إلى الرحلة منقولا أو معزولا ، فهى حينئذ محتاجة ، لا إلى ما يسميه الناس التعديل ، بل إلى ما يسمونه التغيير ، لا إلى ما يسميه الناس تبديلا فى بعض الأشخاص ، بل إلى ما يسمونه استقالة ، وقيام وزارة أخرى مقامها . وكل شيء يدل عندك وعندى وعند أمثالنا من الذين لا يزال الله يحفظ عليهم شيئا من الصحة ويحرمهم نصيبا من النبوغ ، على أن وزارتنا فى موقف من هذه المواقف الذى يجعل التغيير والاستقالة أمرا لا بد منه ، وحتما لا منصرف عنه . فرئيس وزرائنا قد طال عليه المرض وهو قد برىء منه الآن ولكن ليستريح ، لا ليستأنف النشاط السياسى فورا .

وسياسة وزارتنا قد أخفقت إخفاقا معيبا ، فلا هى كسبت خصومها بحسن السياسة ، أو بالإغراء ، ولا هى قهرت خصومها بسعة الحيلة أو بالإسراف فى البطش وألوان العنف ، وإنما هى اليوم كشأنها يوم قامت منذ أكثر من ثلاثة أعوام أمام شعب قوى حازم ، لا يعبث الآن كما لم يكن يعبث من قبل فى مطالبته بالحق وإلحاحه فيه وحرصه على أن يحكم كما يريد هو ، لا كما يريد غيره مهما يكن من الناس .

نعم ، وأخفقت الوزارة فى غير ذلك مما عرضت له من الشئون ، فالأزمة تشتد وتشتد حتى تكاد تضطر الشعب كله إلى الجوع . والأمن يختل حتى يكاد يضطر الشعب كله إلى الاستخفاء إذا كان الليل . والأجنبى يطغى حتى يعبث فريق من المبشرين فى غير حرج ولا جناح بأبناء الشعب وبناته ، وحتى تتألب أوربا علينا الآن لتكرهنا على أن نؤدى فوائد الدَّين ذهبا ، لاورَقا ، مع أنها تخلصت

هى من عبء الذهب ، ومن دولها من تخلص من عبء الدين كله أو بعضه ، وحتى أصبحنا غرباء فى بلادنا ، تعبث بنا الشركات كما تريد ، وتضطر عمالنا إلى الجوع والسؤال . والوزارة تنظر إلى ذلك باسمة مطمئنة ، والقوانين تشرع ثم لا تحترم ، بل يتجاوز الوزراء أنفسهم حرمات هذه القوانين . والموظفون يشهدون من ألوان المحاباة والإيثار ما يفسد عليهم كل شيء وينزع من قلبهم الثقة والأمل ، ويبث بينهم العداوة والبغضاء . وكل شيء فى مصر قد فسد حتى بلغ من الفساد أقصاه أو كاد يبلغه حتى لو قال قائل إن هذه الوزارة إنما قامت لتحليل الشعب وإظهار ما فيه من مواضع الضعف وتعريضه لكل ألوان الشر لما أخطأ ولا جار عن قصد السبيل . ولم تأخذ مصر لهذا الشر العظيم والخسران المبين ثمنا قليلا أو كثيرا ، فما زال الإنجليز كما كانوا ، لم يفاوضوا ولم يعاهدوا ، ولا أظهروا رغبة فى المفاوضة أو المعاهدة . وإنما غلوا فى التسلط على مصر سرا وجهرا ، فحققوا ما أرادوا من المآرب وردوا مصر إلى مكان البقرة الحلوب من الشره والنهم الذى لا يروى مهما شرب ، ولا يشبع مهما أكل ، ولا بد له من أن يحلب ويحلب ، ومن أن يمرى ويمرى حتى يخرج إليه لبن البقرة مشوبا بالدم .

أفتظن أن هذه الحال هى التى جعلت وزارة صدقى باشا اليوم من القوة والمتانة بحيث لم تكن فى يوم من الأيام ؟ أم تظن أن هذه الحال هى التى جعلت وزارة صدقى باشا معرضة للتغيير ، لأن بقاء الوزارات فى مراكزها على الدوام لا سبيل إليه ؟

كلا الأمرين قاله رئيس الوزراء ، وكلا الأمرين يؤمن به رئيس الوزراء فهو يرى أن وزارته لم تكن فى يوم من الأيام أقوى مما هى الآن . وهو يرى أن وزارته قد يصيبها التعديل . وأكبر الظن أنه لا

يريد أن يجيب على سؤال لم يكن بد من أن يجيب عليه . ويقول كلاما لم يكن بد من أن يقوله . فأما الحق الذى لا شك فيه فهو أن الأمر قد خرج من يد صدقى باشا ، لأنها لم تبق قادرة على ضبطه وتصريفه .

وأظرف من هذا التناقض ما يقوله رئيس الوزراء من أن وزارته مستمتعة بثقة البرلمان . هى إذن قوية إلى غير حد ، متينة إلى غير حد . فأما ثقة البرلمان فسيستمتع بها صدقى باشا ما أقام فى الحكم . وأما ثقة جلالة الملك فقد نحب أن نعلم كيف يجمع رئيس الوزراء بين استمتاعه بها وبين إعلانه أن وزارته قد يصيبها التعديل ، لأن بقاء الوزارة فى مراكزها على الدوام شىء لا سبيل إليه .

وكم نحب لصدقى باشا وزملائه وأنصاره أن يقتصدوا فى ذكر جلالة الملك وثقته بهم وعطفه عليهم ، فنحن نعلم حق العلم أن الشعب المصرى نفسه مستمتع بحب جلالة الملك له ، وعطف جلالة الملك عليه ، وإيثار جلالة الملك لمنافعه على الوزراء وبقائهم فى مناصب الحكم . فخير للوزراء أن يرفعوا ثقة جلالة الملك عن هذه الأحاديث السياسية التى هى بطبعها موضوع للمناقشة والجدل .

وظريف من رئيس الوزراء تأكيده أن تغيير المندوب السامى لن يغير السياسة الإنجليزية . هذا ظريف لأن رئيس الوزراء يسلك فى هذا التأكيد مسلك زميله الذى خطب فى حزب الشعب منذ أيام فأعلن أن المندوب السامى لم ينقل لأسباب سياسية ، وإنما نقل لعامل شخصى محض . وهذا رئيس وزرائنا يعلن إلى مكاتب الأهرام أن لديه أوثق تأكيد بأن سياسة وزارة الخارجية البريطانية لم تتغير . فسياسة

وزارة الخارجية البريطانية هى هذه الدائرة التى تدور فيها منذ الثورة . وهذه الدائرة ما زالت قائمة لم تنفرج بعد ، وما تزال وزارة الخارجية البريطانية تدور فيها . فإذا كانت هذه السياسة ثابتة باقية فإن ثباتها لا يستلزم بقاء الوزارة القائمة ، ولعله يستلزم ذهابها كما استلزم ذهاب المندوب السامى ، لأن وزارة الخارجية تدور ، وقد قطعت من دائرتها مكان صدقى باشا والسير برسى لورين . فإذا كان رئيس الوزراء يظن أن ما لديه من التأكيدات يخدع أحدا ، فهو مخطىء ، فإن هذه التأكيدات لا تخدع إلا الذين يتعلقون بأهداب الوهم . ورئيس الوزراء نفسه غير مخدوع بهذه التأكيدات فهو يعلن أن وزارته القوية المتينة قد يصيبها التعديل لأن بقاء الوزارات فى مراكزها على الدوام شىء لا سبيل إليه .

ما أجدر رئيس الوزراء وأصحابه أن يأخذوا بحظهم من الشجاعة وأن يؤمنوا للحق الواقع ويعترفوا به . فقد أخفقت سياستهم وسياسة المندوب ولا بد من تغييرهم كما تغير المندوب . والأيام حازمة صارمة ، لا تعرف ضعفا ولا ترددا ، ولا تعرف رحمة ولا إشفاقا . وهى ممضية حكمها فيهم كما أمضته فى المندوب ، لا يعنيها أن يرضوا بذلك أو يسخطوا عليه . فليطمئن رئيس الوزراء فإن الأيام مطمئنة أيضا .